

مرجعيات غموض المعنى في النقد العربي القديم

طالب دكتوراه: بهر سعيد زمعلاسه واري محمد

كلية الآداب واللغات والفنون - جامعة سيدي بلعباس

ملخص البحث:

إن مشكلة الغموض ظاهرة قديمة، ظهرت في العصر الجاهلي، إلى أن ظهر ما يسمى بالشعر الحر في العصر الحديث، وطُعم بمصطلحات عربية، ولكن ظهور هذا الشعر كان لعوامل سياسية وانقلاب المفاهيم العربية كلها، ويبقى الغموض مسألة فنية، لا يجوز التخلي عنها لأن أسباب ظهورها أننا نعيش بين أحضانها الآن.

- résumé :

Le problème de l'ambigüité phénomène ancien est apparu dans l'ère pré-islamique cela est apparu que l'on appelle un vers libre à l'époque moderne et le gout des terme occidentaux, mais l'émergence de cette poésie était des factures politiques et feuille arabe et tout coup de concepts arabes et l'incertitude l'ambigüité une question technique ne dépassant pas réfuté par ce que les raisons de leur apparence vivent sein maintenant.

لقد فرق علماء اللغة بين (الغموض) (وبين) الإبهام وما يسمى باللبس فهذه الألفاظ كلها وإن كانت تفيد في مضمونها

العام التداخل والتعقيد وخفاء المعنى أو عدم وضوحه ونريد أن نصل إلى مفهوم الوضوح والغموض والفرق بينهما.

ولقد ظهر لفظ الغموض أو هذا المصطلح الذي يتصدر تقريبا جميع النقد، وبعد ظهور الشعر الجديد أي شعر التفعلة وهل هذا الغموض في العصر القديم، بل عصور الأدب العربي، شاع مصطلح الغموض عند ظهور أبي تمام وفي العصر العباسي أو قبل العصر العباسي لم تكن هذه الشكوى متواجدة بل كانت غائبة وفي العصر العباسي ظهرت الشكوى من غموض هذا الشعر، وقد كان هناك علماء لا يفهمون الشعراء مثل علماء اللغة والنحو، وشعر: أبو نواس كان ظاهرة في الغموض في بعض القصائد ومن حق الشعر أن يكون غامضا لأن غموض هو شعرية، أما الأساليب المباشرة التقريرية والذي اشتهر في العصر العباسي هو أن النقاد أنفسهم، اشتكوا من هذا الغموض « وقد وجه إلى أبي تمام هذا السؤال؟ من قبل أبي سعيد الضرير في حوار جرى بينهما وبينه حول قصيدته التي يمدح فيها عبد الله بن طاهر ومطلعها.

هَنْ عَوَادِي يَوْسُفَ وَصَوَاحِبَهُ قَفَرٌ مَا فَقَدَ مَا أَذْرَكَ طَالِبُهُ

والتساؤل هو: لم لا تقول ما يفهم؟! «
فأجاب أبو تمام: وَلَمْ لَا تَفْهَمْ مَا يُقَالُ¹.

ومن عوامل الغموض:

- ظاهرة الشعر الصوفي.

- البعد الأسطوري.

ونكتف بذكرها لأن المقام لا يسمح بالتفصيل في ذلك ونرى أن الغموض ليس هو الإبهام هذان المصطلحان: ليس بينهما ترادف في المعنى كل مصطلح يحمل معنى لا يحمله الثاني ولفظه الغموض ليست هي بالضبط لفظه الإبهام فالغموض الشعري ظاهرة جمالية في الشعر لشد المتلقي إلى محبة الأثر الأدبي فلفظة (الغموض) يعني عندهم بنحو خاص الخفاء الناتج عن الدقة والعمق والجودة والأصالة في المعنى، وبعد النظر وسداد الرأي ويقول ابن فارس «غمض الشيء من العلم وغيره فهو غامض ودار غامضة، إذا لم تكن شارة بارزة وأغمضت حد السيف إذا رققته أي كأنك لرقته أخفيته عن العيون»².

أما لفظ (الإبهام) فهو لا يعني الغموض بل هو أعمق من الغموض، وربما لا تفقه شيئاً من ذلك ويدل لفظ (الإبهام) استغلاق المعنى وتعسر العثور عليه أو تعذر العثور على طريق يمكن الوصول إليه فيقال «استبهم عليه أو تعذر العثور على طريق يمكن من الوصول إليه فيقال: استبهم عليه الأمر أي

استغلق وكلام مبهم: لا يعرف له وجه يؤتى منه (...) ³
فالإبهام أشد اعتياصا وتعنتا من لفظ الغموض.

أما الإمام عبد القاهر الجرجاني فقد تطرق إلى مفهوم:
الغموض من خلال التعقيد. «وأما التعقيد فإنما كان مذموما
لأجل أن اللفظ لم يرتب الترتيب الذي يمثله تحصل الدلالة على
الغرض متى احتاج السامع أن يطلب المعنى بالحيلة ويسعى إليه
من غير الطريق كقوله:

وكذا اسم أغطية العيون جفونها من أنها عمل السيوف عوامل

وإنما ذم هذا الجنس لأنه أحوجك إلى فكر زائد عن المقدار
الذي يجب في مثله وكذلك بسوء الدلالة وأودع المعنى لك في
قالب غير مستو ولا مملس، بل خشن مفرّس، حتى إذا رمت
إخراجه منك عسر عليك، وإذا خرج، خرج مشوه الصورة
ناقص الحسن» ⁴.

وقد يذهب المعنى ويغيب تماما عندما يكون الإبهام قد
أحاط بالنص، وقد وصفه عبد القاهر الجرجاني أشد الوصف
وأما الغموض، قد يكون ضرورة تطعم الشعر باللذة وطول
التفكير الذي يثلج صدر المتلقي «وهذا والمعقد من الشعر
والكلام لم يذم لأنه لما يقع حاجة فيه إلى الفكر على الجملة، بل
لأن صاحبه يعثر فكرك في متصرفه، وليتك طريقك إلى المعنى

ويوعّر مذهبك نحوه، بل وربما قسّم فكرك، وشعب ظنك، حتى لا تدري من أين تتوصل وكيف تطلب»⁵.

ويدرك المتلقي مع الشعر المعقد حاجته بدون كلل، والشعر لا يكون شعرا إلا إذا تلبس بالغموض والشاعر حين يريد تدبيج نص شعري لابد من إثرائه بلفظ محكم، جزل «أما مسالك إزالة الغموض والإشكال الواقع بهذه الحالات، كما يرى القرطاجني، فهي اختيار ما يماثلها من جهة الدلالة، ويتجنب الغموض ويقول القرطاجني: «إذا اجتهد الشاعر في توفية العبارة حقها من البيان وقصد بها الإيضاح غاية ما يستطيع فقد أزال عن نفسه اللوم في ذلك، ونفى عنها التقصير لوجب عذره في خفاء المعنى (...)»⁶

إن اختيار الدلالات، يتم المعنى أي معنى البيت بدون أن تخرجه القافية وعليه إسقاط المعنى الناقص أفضل من إثباته⁷ والغموض يكون تارة، واجباً يجب القيام به، فإن بعض المتلقين، لسبب محصولهم اللغوي يرون أن الغموض تصدى لهم في حين أن الغموض غير موجود إلا في أذهانهم، لأن أسلحتهم اللغوية ضعيفة ومردودهم منها قليل فيحملون كل الناس مشكلة الغموض، والضعف يكمن عندهم فمشكلة الشعر نابعة من معناها، ولا يمكن تصليح أن يفك بيتا أو أبيات إلا وهو يملك السلاح «وليس في الأرض بيت من أبيات المعنى قديم أو

محدث إلا ومعناه غامض مستتر ولولا ذلك لم تكن غيرها من الشعر ولم تفرد لها الكتب المصنفة وتشغل باستخراج الأفكار الفارغة»⁸

وهناك أشعار عوقتها المفردات وجعلتها لا تصل إلى مبتغاها إلا بشق الأنفس ولا بد للقارئ أن يكون له رصيد كبير من المعرفة حتى يواجه نصوصا شعرية ويحلل ألبازها.

و«يكون الغموض محترما ما دام يسند الفكر تعقيد الفكر أو اكتنازه ما دام نواة يستعلها الأديب ليقول بسرعة ما قد فهمه القارئ»⁹، والغموض لون من العمل الأدبي لظروف خاصة بالشاعر أو الناثر « وليس في الأرض بيت من أبيات المعاني قديم أو محدث إلا ومعناه غامض مستتر، ولولا ذلك لم تكن إلا غيرها من الشعر» (...)¹⁰.

فظاهرة الغموض متفشية حتى في الشعر العمودي وأما الشعر الحديث، فضروري أن يكتنفه، لأن الغموض ظاهرة جمالية ولا بن جنى رأي طريف في مجال اللفظ والمعنى « فإذا رأيت العرب قد أصلحوا ألفاظها وحسنوها، وحموا حواشيها، وهذبوها وصقلوا غروبها وأرهفوها فلا ترين أن العناية إذ ذاك إنما هي بالألفاظ بل هي عندنا خدمة للمعاني، وتنويه بها وتشريف»¹¹.

وقد يكون الغموض نتيجة للرمز، أو الاسطورة والمواقف الدينية، فعلى المتلقي أن يكون له زادا من المعرفة من أجل قراءة الشعر والشاعر الذي حير النقاد، هو أبو تمام الذي رفض إلا أن يكون شعره غامضا وعوامل الغموض عنده كبيرة، و«يكاد الشاعر الوحيد الذي تسبّب في الغموض الشعري، لعل أسبابا تضافرت جميعها فأصاب شعره بالغموض، شكا منه غير واحد من النقاد في عصره وبعد عصره فهو مثقف ثقافة شعرية بسبب اطلاعه المعمق الدقيق على الشعر وهو مثقف ثقافة فكرية بسبب اطلاعه على المعارف المتنوعة في عصره وهذه المعارف المتنوعة هي ما ازدوج بعض الألوان البديعية عنده فجعلت بالغموض في كثير من جوانبها وأجزائها كما يرى شوقي ضيف»^{1 2}.

وغموض المعنى هو الذي يُلبس على المتلقي مسافة الفهم للنص الشعري « وكانت مسألة (الغموض) في الأدب قد أثارت نقاشا حادًا، وطويلا بين الأدباء والنقاد العرب، وذلك منذ أن اتسع في الساحة الأدبية، أواخر القرن الثاني ثم الثالث وامتد أثرهما بمدرسة البديع والتجديد وظهرت أشعار تنحو منحى فكريا (...)»^{1 3}.

و« القاضي الجرجاني في هذه القضية يتميز بالوعي النقدي والنظرة القادرة على الوصول إلى أفاق المستقبل لأنها تمس جوهر المعنى»^{1 4} يقول القاضي عبد العزيز في الوساطة يحلل

ظاهرة الغموض لدى أبي تمام يقول القاضي: ولو كان التعقيد وغموض المعنى يسقطان شاعرا لوجب أن لا يرى لأبي تمام بيت واحد، لا نعلم قصيدة تسلم من بيت أو بيتين قد وفر التعقيد حظهما وأفسد فيه لفظهما، ولذلك كثر الاختلاف في معانيه، وصار استخراجها بابا منفردا يتسبب إليه طائفة من أهل الأدب، تتطرح في المجالس مطاردة أبيات المعاني وألغاز المعنى، ونظرية المعنى عند النقاد القدامى، فيها كثير من الفلسفة والالتواء، ولا يقصدون الوضوح لذاته بل يجنحون إلى شيء عندهم هو فلسفة المعنى.

و«الإنسان العادي يرى الدرر، ويرى البساط ويرى النجوم والسماء، ولكن الشاعر يستطيع أن يؤلف من هذه العناصر كلها نسقا وهو نسق خاص لا يختلط فيه النجوم بالدرر، ولا تختلط صفحة السماء بصفحة البساط، الأشبه بعقل الناقد القديم أن هذه الأشياء، اجتمعت في الوهم وهي منفصلة في الحقيقة فالفرق بين الوهم والتخييلي والحقيقة المدركة بالحواس والعقل فرق كبير، والإنسان العادي يرى البرق والنجوم ولكن الشاعر يستطيع أن يربط بين هذين العنصرين، ليكون نسيجاً يسوده النظام والتوافق، ولكن أجزاءه المتناغمة متميزة هذه هي فلسفة الناقد القديم في المعنى الجميل، أن يقرأ التناغم والتمايز»¹⁵.

ومن الطريف أن الشعر الجيد لا بد أن يكون غامضاً وغموضه، تدعوه ضرورة الشعر فلا بد للمتلقي أن يشق على نفسه بالتعب

ويرهق نفسه فيما يلقي إليه من شعر، و«يرى عدد من نقادنا العرب القدامي والنقاد المحدثين على حد سواء بأن الشعر الجيد أو الخالص البديع غامض بصيغته أو أن الغموض مقوم من مقوماته لا حدثا عارضا فيه، وأنه في الوقت نفسه مصدر من أهم مصادر الإيحاء والجذب والتأثير فيه»¹⁶، وعوامل الغموض كثيرة، لمن أراد أن يتسلح بها فإذا فقدوها، وأصبح لا يستطيع مواجهة فهم الشعر فعليه أن ينفض يديه من قراءته، حتى يزود نفسه بالطاقة التعبيرية وظاهرة الغموض الشعري سواء أكان قديما أو حديثا لا يمكن الإجهاز عليها وتنتهي منها لأنها عملية متواصلة لا تقف على حد. فكأن الغموض سيجدد بفعل تقدم الزمن ويحتاج هذا الشعر إلى التعقيم «إن ظاهرة الغموض في الشعر لا يمكن في الواقع تفسيرها بكل أبعادها وملابساتها بمجرد فهم العلاقة بين الشعر نفسه ولغة المجاز لأن هذه الظاهرة خاصة بالشاعر وثقافته وإمكانياته الذهنية وحالته النفسية والشعورية كما أن لها ارتباطا بالاستعمال المجازي للغة (...)»¹⁷.

ومن الغريب أن الشعر لا يكون شعرا حقيقيا إلا إذا اتسم بالغموض أو الاكتناز الدلالي (...) والعجيب أنهم يعتبرون حياة الشعر في الغموض وموتها في ظهور حقيقتها»¹⁸.

ولذا فإن الغموض هو متعة النص، حتى لا يكون خبرا في جريدة، إنه الشعر الذي رفع أقواما ووضع أقواما والمتلقي يجب أن يتميز بالكفاءة « وهو حين يدخل عتمة الغموض والتركيب، فإنه يفعل ذلك وعيا بضرورة أن يكون منتجته علامة تدل على العالم وتفعل فيه »¹⁹.

والغموض قد يكون مفعما بالضبابية، فلا ينظر المتلقي بصيصا من الأمل «ففي كثير من الأحيان تغيب عن النصوص الحداثية الدلالة غيابا كاملا، سواء أكان ذلك بسبب غياب الموضوع (...) مما يحدث شرخا تعبيرا يعمل على إعاقة مهمة المتلقي في القراءة والفهم»²⁰.

فلا بد من اتخاذ آليات الفهم والتأويل ليصل القارئ إلى عدة تأويلات، قد يطمئن إليها .

الهوامش:

- ¹ - عبد الرحمان محمد القعود: الإبهام في شعر الحداثة، عالم المعرفة، العدد 269 ، دولة الكويت، ص 19.
- ² - أحمد بن فارس: معجم مقاييس اللغة بيروت، دار الفكر د ت :ج 4: بيروت، ص 396.
- ³ - المصدر السابق ، ص 127.
- ⁴ - عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز، شركة القدس: مطبعة المدني: القاهرة، ط 1، 1991، ص 142.
- ⁵ - عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز، دار المدني، مصر، ص 42.
- ⁶ - حازم القرطاجني: منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تحقيق: محمد الحيلب- دار تعرب، الإسلامي، ط 3، 1986، ص 131.
- ⁷ - محمد بازى، التأويلية العربية، منشورات الاختلاف ، الجزائر، العاصمة، ط 1، 2010، ص 130.
- ⁸ - فايز الداية، علم الدلالة، دار الفكر، دمشق، ط 2، 1996، ص 194.
- ⁹ - فايز الداية، جماليات الأسلوب، دار الفكر العربي، ص 235.

-
- ¹⁰ - نفسه، ص 235.
- ¹¹ - ابن جني: الخصائص، ج1، د.ب، المكتبة التوفيقية، د. ت، والبلد، ص 192.
- ¹² - شوقي ضيف: الفن ومذاهبه في الشعر العربي، دار المعارف، بمصر، ص 220.
- ¹³ - فايز الداية: علم الدلالة، دار الفكر، دمشق، ص 192.
- ¹⁴ - القاضي الجرجاني: الوساطة بين المتنبي وخصومه، المكتبة العصرية، بيروت، 2010، ص 26.
- ¹⁵ - مصطفى ناصف: نظرية المعنى في النقد العربي، دار الأندلس، 1981، د. ب، ص 111.
- ¹⁶ - أحمد محمد المعتوق، اللغة العليا، المركز الثقافي العربي، المغرب، ص 85.
- ¹⁷ - أحمد محمد المعتوق: اللغة العليا، المركز الثقافي العربي، المغرب، ص 85.
- ¹⁸ - لطفي فكري محمد الجودي: للنشر والتوزيع المختار للنشر والتوزيع، القاهرة، ص 77.
- ¹⁹ - نفسه، ص 77.
- ²⁰ - عبد الرحمان عبد العزيز القعود: الإبهام في شعر الحداثة، سلسلة عالم المعرفة، عدد 279، الكويت، مارس : 2002، ص 177.

